مجلة أبحاث البصرة (العلوم الإنسانية) المجلد : ٣٧ ، العدد: ١ السنة : ٢٠١٢ ، ص١١٠- ١٣١

سورة يوسف
صورة من صور الحرب النفسية في المرحلة المكية

علي غانم جثير

جامعة البصرة . كلية التربية . قسم التاريخ

الخلاصة :

يحاول البحث أن يقرأ قصة يوسف وفقا لأنظمة العلامات من خلال الكشف عن مضمون الخطاب الذي كانت ترسله للمتلقين آنذاك في ظل أجواء الصراع بين النبي محمد(ص) وزعماء المشركين عبر أقامة مقاربة بين القصة والواقع وفقا لأنظمة العلامات . فقد أتضح أن القصة جاءت لمعالجة الوضع النفسي الذي مر به النبي(ص) والمسلمون بفعل ضغوطات زعماء المشركين عليهم ، ومن جهة أخرى حاولت تبكيت المشركين نفسيا وتحجيم التهديدات التي كان يمارسونها على النبي والمسلمين والدعوة للتوحيد ونقد الشرك ، فكانت بمثابة رؤية تستشرف مستقبل الصراع وتبشر بانتصار الدعوة الجديدة .

ما هي قيمة سورة يوسف وقصته بشكل خاص ؟ ، ولماذا وردت بشكل كامل في سورة واحدة على عكس بقية قصص الأنبياء التي وردت متفرقة في ثنايا عدة سور ؟ ، لاسيما أن وضوح القضدية في الطرح القرآني يحتم البحث عن رسالتها العامة والجزئية في ثنايا القصة ، فإيرادها في مكان واحد له علاقة بالرسالة التي تريد القصة إيصالها للمتلقين ، خاصة أن الآية الثالثة (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ...) أكدت أكثر من أي مكان آخر على وصف القصص بصيغة التفضيل العليا (أحسن) مما يدلل على منحها الأفضلية ، وقطعا أن الأفضلية لا تأتي ألا من حيث قوة الرسالة التي تحملها آنذاك ، كما دعت في خاتمتها إلى التوقف عند دلالات القصة تحت مفهوم العبرة ، ومن المهم أن يقرن القارئ العلاقة بين العبرة وتعبير الرؤى ، الميزة التي أمتلكها يوسف ، مما يدلل أكثر على القيمة الوظيفية التي حملتها القصة في قوة علاقتها بالواقع آنذاك . هل اقتصرت سورة يوسف على مجرد تضمنها قصة يوسف ؟ ، هل اقتصرت القصة على محور الدعوة للتوحيد فقط ؟ ، أم أن هناك محاور أخرى ؟ ، ما هو صلب القصة وما الرسالة التي حملتها للمتلقين آنذاك ؟ . هذا ما ستحاول الدراسة الإجابة عنه قدر الإمكان .

سورة يوسف

صورة من صور الحرب النفسية في المرحلة المكية

إن قراءة . بمعنى دمج الوعي بالنص . القصص القرآني يفتح أمام الباحثين في تاريخ السيرة النبوية أفاقا جديدا لإعادة كتابتها ويمنحهم متعة الإبداع ، ولكن ليس من خلال دراسة القصص بحد ذاتها ضمن مفهوم العبرة وهذا ما دأب عليه المفسرون ، بقدر دراستها دراسة تزامنية كخطاب يحمل رسالة تأثيرية لها علاقة بالسياق الاجتماعي والثقافي الذي أنتجها ، لأن القصة تفقد جدواها مثلما يفقد التاريخ قيمته بغياب البعد التوظيفي من وراء الاستشهاد به أو سرده ، في ظل ظروف الصراع بين ترسانتين من القيم والتصورات ، أحداهما قديمة والأخرى جديدة تريد أزاحته وتتخذ من القصص وسيلة لذلك . محاولين الإفادة من معطيات المناهج الحديثة في البحث الدلالي والقراءة السيميائية لمضمون الآيات .

أن الخبرة المتوارثة من مصادر المعرفة عند العرب قبيل الإسلام ، أي تلك المتعلقة بما يأخذونه عن ذويهم من آبائهم وأجدادهم ، فمن أبرز طرق التعلم في المجتمعات ذات الثقافة الشفاهية هي التلمذة والأخذ من الشيوخ بالاستماع وإعادة ما يسمعون من خلال إجادة الأمثال وطرق التأليف بينها وإعادة التأليف واستيعاب مواد أخرى قائمة على الصيغ الجاهزة ، وبالاشتراك في نوع من التأمل الجمعي في الماضي(١) ، ويمكن أن نُسمي النوع الأخير التاريخ المشترك ، وتلعب الأندية والمجالس التي ورد ذكرها في آيات قرآنية دورا كبيرا في تعليم الأجيال وتناقل الخبرات ، وليس خفيا إدراك أهمية القصص عند العرب من خلال حجم التوظيف القرآني لها في محاولة إقناع المشركين بمبادئ الدعوة الجديدة أو ردعهم . إن التوظيف القرآني للقصص ولاسيما تَفَرُّق استخدام محاور القصة الواحدة في سور عديدة ليحمل دلالة على أن القصص كانت تستجيب لمتطلبات الواقع وهذه الطريقة ليست بعيدة عن إدراك العرب أو فهمهم لوظيفة القصة في خدمة واقعهم ، لأن العرب كانوا يدركون أهمية التاريخ كوسيلة لنقل الخبرات والدروس بطريقة لاشعورية غير مباشرة ، أي كنظام تربية وتعليم في المجالس بطريقة غير رسمية تفعل فعلها في تثقيف الفرد ورفع مستوى وعيه وخبرته في الحياة كما تلهمه أن يعتز بتاريخه ومنجزه ، فضلا عن أنها تساهم في تعزيز المنظومة القيمية والتصورية السائدة آنذاك التي يمكن أن نسميها بعقيدة الآباء ، وأنها وسيلة تثقيف عالية الجودة تستخدم ولاسيما إذا تعلقت بتاريخ القبيلة ، وزرع روح الانتماء للجماعة لديهم والتعصب لهم حيث " أن التقاليد الشفاهية تعكس قيم المجتمع الثقافية الحاضرة أكثر مما تعكس حب الاستطلاع المجرد حول الماضي "(٢) ، ودلالة هذا الكلام على أن العرب ربما كانوا يدركون أن القصة لم تكن هدفا في حد ذاته بل وسيلة استثمار لفهم الحاضر بالإفادة من تجارب الماضي ، فذكر الطبرسي مثلا في معرض تفسيره لآية ٢٠٠ من سورة البقرة ، أن العرب بعد أن ينتهوا من الحج كانوا يجتمعون ويتفاخرون بذكر أعمال ومآثر وبطولات أسلافهم(٣) في دلالة على اعتزازهم بهم . كما يعكس لنا تساؤلهم عن بعض القصص . التي

لا يخفى الدافع الكيدي من ورائه إلا أنه لا يخفي في ذات الوقت أهمية القصة عند العرب أيضا . على حبهم لها بصورة عامة وربما توقهم لمعرفتها فتساءلوا عن ذي القرنين وأهل الكهف .

وليس من المستبعد أن المكيين كانوا على معرفة ببعض قصص أهل الكتاب وهذا ما يتضح من دراسة مضمون قصة نبي الله داود (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ(٢١)إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ(٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ(ص٢٥) ، التي لا يمكن أن يعرف مضمونها ومغزاها المتعلق بالفتنة من الآيات نفسها دون أن يكون لدى المتلقين العرب تصور مسبق عنها ، إذ لم يطرح القرآن الكريم تفاصيلها مما يدلل على معرفة المتلقين بها ، وإلا فان الإشارة التي حملتها لا تتعدى حدود المثبت في الآيات ، فكيف كان المشركون يفهمون استدراك نبي الله داود وتوبته لخطأٍ يبدو من ظاهر القصة إنه لم يرتكبه ؟ إلا إذا استحضرنا تفاصيل المفسرين المتوافقة مع رواية التوراة التي تشير إلى أن نبي الله داود كان متزوجا من تسع وتسعين زوجة وان مضمون القصة كان بمثابة تبكيت له على ما فعله بأوريا كي يتزوج بامرأته[٤] ، خاصة وان كتب التفسير والسيرة تشير بأن النضر بن الحارث العبدري " كان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ما لفارس وأحاديث رستم واسفندياذ . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس مجلسا يذكر فيه بالله ويحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله ، خلفه في مجلسه إذا قام ، ثم يقول : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه ، فهلموا فأنا أحدثكم أحسن من حديثه . ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفندياذ ، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثا مني ؟ "[٥] ، بينما كان العرب على تماس مع أهل الكتاب فليس من المعقول عدم معرفتهم بقصص بعض أنبيائهم[٦] ، رغم كون أهل الكتاب أقلية لكنهم جزء من التركيبة السكانية لشبه الجزيرة العربية ، فلابد أن يكون هناك اتصال واحتكاك ثقافي بين المشركين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى الذين كان قسمٌ منهم يعيش في مكة ويثرب أو في مناطق قريبة من الطرق التجارية كما هو الحال بالنسبة لبعض الرهبان الذين يظهرون في الروايات الخاصة برحلة النبي(ص) لبلاد الشام ، فهناك آيات تشير لاتخاذ المشركين من ملة أهل الكتاب كمقياس لمدى صحة الوحي بقولهم (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ(صّ٧) في سياق انتقادهم للتوحيد وتعجبهم منه ، فبعض المفسرين يرى أن المقصود بالملة الآخرة هي النصرانية[٧] ويمكن تدعيمه بتوافق كلاهما في الشرك ، وهي تحمل دلالة على تتبعهم ومعرفتهم بملل أهل الكتاب ، وفي الوقت ذاته ومن زاوية الدعوة الجديدة نجد أنها أحالت العرب لأهل الكتاب كمصدر للاحتكام وتأكيد مصداقية النبي(ص) (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا

تَعْلَمُونَ(النحل٤٣)(٨) ، فحثتهم على مُساءلة أهل الكتاب وغيرها تشير لمعرفة العرب بما ورد في كتب أهل الكتاب من حيث العموم .

من الضروري قبل كل شيء أن نحلل دلاليا الرؤيا لأنها جوهر مضمون السورة والقصة ، فالرؤيا هي استشراف المستقبل وسبر غور المجهول ، فعلى مستوى القصة هي الملكة التي أمتلكها نبي الله يوسف ، بينما كانت من حيث السورة ككل بمثابة رؤيا لمستقبل الدعوة على مستوى الواقع . فتأتي الرؤيا من الجذر اللغوي رأى ، وقد سرد أبن منظور في دلالتها معاني عدة منها : الرؤية بالعين ، النظر بالقلب ، المرآة ، الرياء ، الرؤيا في المنام ، الرئي/الجن ، النظر/ الفكر ، الرأي/الاعتقاد وأخيرا الرئة(٩) . ويتضح مما تقدم الثراء الدلالي للكلمة ، التي يمكن من خلالها أن نقيم مقاربة بين المعاني المذكورة ، فالرؤية هي البصر بالعين التي تُعد المُدخِل الأساسي للصور في الدماغ ، والتي ستنغلق في النوم لتشتغل المخيلة المستندة إلى الذاكرة ، أما النظر فهو الفكر ، وكأن الرؤيا هي حاصل جمع هاتين الدلالتين حيث يعمل الفكر مع المخيلة في تكوين الرؤيا ، أما الرأي فهو الاعتقاد ومنه نلمح معنى مهما ألا وهو أن الرؤى هي اعتقاد أو تعبير عن وجهة نظر/ رأي ، وربما نلمح من المرآة اعتقاد العربي بأن الرؤيا هي انعكاس للواقع أو قراءة ثانية له ومن هنا كانت القصة انعكاس للواقع . كما أن علاقتها بالرئي/الجن يبرزها كمَلَكَة رفيعة المستوى تكشف عن المستقبل المجهول حيث أرتبط الجن في الذهنية العربية قبيل الإسلام بمعرفة خبر السماء ونقله للكهنة(١٠) ، وقد بقيت الرؤيا تحمل هذا المعنى بعد الإسلام أيضا فقد عدها النبي محمد(ص) جزءً من النبوة(١١) ، وذكرت مصادر سيرته إنها من مؤهلات النبوة فكان يرى الرؤيا الصادقة التي تتحقق في اليوم التالي(١٢) .

إن أهمية الرؤى عند العرب يمكن تلمسه من خلال فعل التوصيل والإخبار عنها بكلمة (رأيت) وبتسمية ما يراه الإنسان في نومه باسم (الرؤيا) ، وكأنها تقترن بالبصرية في وضع يكون الإنسان فيه غير مبصر وفي حالة استرخاء جسدي ، وعلينا أن نلاحظ توصيف الرؤيا الداخلية كرؤية حقيقية لشيء منظور يتعلق بما يحدث في الواقع الموضوعي ، ولكنها في حالة محايثة مع الذات وليست مفارقة لها من خلال ارتباطها بالذات الرائية لذلك كانت لها قيمة اجتماعية كذات عارفة متفوقة على أقرانها ، ونلاحظ دلالة ذلك في اكتساب الرؤى منزلة تلامس الواقع كنافذة على الغيب ، حيث أنها سبر للمجهول واتصال بالعالم العلوي ، لاسيما أنه يُروى أن النبي(ص) كان يقول بعد استيقاظه " الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا "(١٣) ، وبالتالي فهي محاولة لكشف المستقبل من خلال التنبوء بحدث ما ، لذا كانت الرؤى عند العرب قبل الإسلام القناة التي تربط بين عالمين حاضر(معلوم) ومستقبل(مجهول) ، وبما أن الجن من منظور قرآني مُنِعوا من معرفة خبر السماء فإن الأنبياء هم واسطة الكشف والمعرفة للمجهول المستقبلي . وقد ذكرت المصادر رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب قبيل معركة بدر التي يمكن أن نلاحظ فيها باهتمام قول أبي الحكم للعباس بن عبد المطلب بعد أن شاعت الرؤيا " يا بني عبد المطلب أما رضيتم أن يتنبأ

رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم "[١٤] ، فهناك رابطة قوية بين النبوة والرؤى حيث كانوا يعتقدون أن الوحي يأتي عبر الرؤى ومن خلالها فهي واسطة الاتصال بالكائنات العلوية لذلك وصفوا الوحي قائلين (... أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ(الأنبياء٥) .

مفاصل القصة وأبعادها :

أن سورة يوسف تنقسم من حيث العموم لمدخل يتكون من ثلاث آيات ثم القصة (٤–١٠١) ثم خاتمة تعقيبيه (١٠٢–١١١) . وسيتضح من خلال الدراسة أن هناك ترابطا جدليا بين هذه المحاور لاسيما الخاتمة التعقيبية بمضمون القصة الذي يماثل علاقة القصة بالواقع ، حيث سيكون الخطاب في الخاتمة التعقيبية موجها بشكل مباشر للنبي محمد(ص) . ولو جئنا لدراسة القصة بشكل تحليلي لأمكن تقسيمها إلى ثلاث مفاصل :

- المفصل الأول / المحنة الأولى (الآيات ٤–٢١) وتنقسم إلى ثلاثة محاور :

١. بدأت القصة بالحديث عن مزايا يوسف (الآيات ٤–٦) من خلال الرؤيا التي رآها ، والرؤيا مثلما هو معروف في أدبيات الحديث النبوي جزء من النبوة حتى أن من الوحي ما هو رؤيا مثل الإسراء (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ(الإسراء٦٠) . وهنا يمكن نشير لمسألة مهمة ألا وهي أن القرآن الكريم يذكر ليوسف رؤيا واحدة بينما ذكرت التوراة أنه رأى رؤيتين ، أحدهما تلك التي نص عليها القرآن الكريم ، ويمكن أن نذكر نص الأخرى " ٥ وحلم يوسف حلما وأخبر إخوته . فازدادوا أيضا بغضا له . ٦ فقال لهم اسمعوا هذا الحلم الذي حلمت . ٧ فها نحن حازمون حزما في الحقل . وإذا حزمتي قامت وانتصبت فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتي . ٨ فقال له إخوته ألعلك تملك علينا ملكا أم تتسلط علينا تسلطا ."[١٥]

يبدو أن هناك رسالة يحملها هذا الانتقاء ، فالرؤيا تبعث برسالة نقد واضحة لعبادة المشركين العرب للكواكب والشمس والقمر مثلما ورد بآيات صريحات في سور أخرى[١٦] ، فسجود الكواكب للإنسان كعلامة يحمل رسالة نقد صريحة لعبادتهم لها مثلما انتقد القرآن الكريم عبادتهم للملائكة من خلال قصة سجود الملائكة لآدم أي بإرسال رسالة فحواها أفضلية الإنسان على الملاك . أما من حيث العموم فإن المقارنة بين الرؤيتين تظهر بوضوح أنها تدور حول مضمون الرؤيا الأولى نفسه أي السجود ليوسف بمعنى أعطائه الأفضلية على أخوته وأنه المرشح الأكبر لوراثة النبوة بعد أبيه ، وتتضح أكثر من خلال دراسة مضمون الآية السادسة (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) ، فالاجتباء دلاليا يعني التقريب أو الاختيار أو الاصطفاء[١٧] ، أما

من حيث علاقتها بالواقع فيمكن تلمسها من خلال البحث الدلالي لكلمة أخ التي لم تقتصر عند العرب على الأخوين من نفس الأب والأم بل قد تأتي لتدل على الأخوة القبلية وهذا ما ورد في القصص القرآني السابق في النزول لسورة يوسف مثلا آية الأعراف (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً...(٦٥)[١٨] ، وعلى هذا الأساس فأن أخوة يوسف في القصة يناظرهم زعماء المشركين في الواقع ، لذا فهي تبعث برسالة مهمة للمتلقين المكيين بأفضلية محمد(ص) للنبوة على بقية أخوته/القريشين ، لمناهضة معايير النبوة لديهم التي رُسِمت حدودها من زاوية اجتماعية ، فقد كانوا يتصورون أن زعماءهم ولاسيما الأثرياء منهم هم الأكثر أهلية للنبوة من غيرهم وهذا يظهر بوضوح من تعجبهم من نزول الوحي على النبي(ص) بقولهم (أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ(ص٨) ، (وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (الفرقان٤١) ، (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(الزخرف٣١) ، بينما لم يكن يوسف بأكبر أبناء يعقوب مثلما كان كل زعماء المشركين أكبر سنا من النبي محمد ، فليس السن أو الثروة أو الزعامة القبلية من مؤهلات النبوة بل المزايا العقلية التي ارتقى بها النبي هي التي تجعله محل اصطفاء .

٢. الحسد ومؤامرة الأخوة (٧-١٨) : واضح أن هذه الملكة أثارت حفيظة الأخوة ، وقد دارت مخططاتهم حول أمرين أما قتل يوسف أو أبعاده إلى أرضٍ بعيدة أي نفيه ، ففضلوا النفي على القتل ، ومن المهم أن نقيم مقاربة بهذا الخصوص بين القصة وبين الواقع ، فقد تعرض النبي محمد(ص) لأكثر من مرة للتهديد بالنفي والقتل والرجم من قبل زعماء المشركين بآيات سبقت سورة يوسف ، ومنها (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ(يونس٧١) ، وقول نبي هود (...فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ(هود٥٥) وعلى نفس الغرار تهديد المشركين لنبي شعيب بالرجم (... وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ(هود٩١)[١٩] ، علما أن سورة هود سبقت نزول سورة يوسف مباشرة ، ويمكن أن نأتي بآية الأنفال التي نزلت بعد معركة بدر لأن موضوعها يتعلق بأجمال بعض مؤامرات المشركين للنيل من النبي قبل الهجرة (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ(٣٠) ، ويمكن أن نلمس التلاحم بين القصة وبين الواقع من خلال الآية التعقيبية (ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ(يوسف١٠٢) التي جاءت بعد القصة مباشرة لذا فأن هذا المحور يحمل رسالة تثبيت للنبي ، وتشير لوجود تخطيط من زعماء المشركين للنيل من النبي محمد (ص) مثل تخطيط أخوة يوسف ضده ، والمهم أيضا أن هذا البعد يرسل برسالة فضح لتلك المخططات .

ومن الجدير بالذكر أنه يرد في التوراة أن يعقوب هو الذي أرسل يوسف وراء أخوته للحقل كي يطمئن عليهم فأستغل الإخوة الأمر وبدؤوا بالتخطيط للتخلص منه " فقال إسرائيل ليوسف أليس إخوتك يرعون عند شكيم . تعال فأرسلك إليهم . فقال له هأنذا . ١٤ فقال له اذهب انظر سلامة إخوتك وسلامة الغنم ورد لي خبرا . فأرسله من وطاء حبرون فأتى إلى شكيم . ١٥ فوجده رجل وإذا هو ضال في الحقل . فسأله الرجل قائلا ماذا تطلب . ١٦ فقال أنا طالب إخوتي . أخبرني أين يرعون . ١٧ فقال الرجال قد ارتحلوا من هنا . لأني سمعتهم يقولون لنذهب إلى دوثان . فذهب يوسف وراء إخوته فوجدهم في دوثان "[٢٠] . فما هي دلالة التغاير والرسالة المبنية عليها عند المتلقين آنذاك ؟ ، أن الفرق بين التخطيط العفوي والتخطيط المسبق له أهميته حيث يدلل على أن زعماء المشركين أكثر استعدادا وأشد جرما للنيل من النبي وهذا واضح من خلال حصد استخدام كلمتيّ مكر وكيد في السور التي سبقت قصة يوسف أولا[٢١] ، لاسيما أن أحدى آيات النمل . سبقت نزول سورة يوسف بخمس سور . تشخص تضايق النبي من مكرهم بنصها (وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ(٧٠) ، فهناك فضح لممارسات ومؤامرات زعماء المشركين .

٣. الإنقاذ(١٩-٢١) هو البعد الثالث في القصة وفيه رسالة واضحة أن وضع يوسف قد خرج من المحنة الأولى بأحسن مما كان ، حيث آوته أسرة ذات مكانة اجتماعية مرموقة في الوسط المصري واتخذت منه ولدا ، ويمكن أن نسمي هذا البعد أيضا بالتمكين الأول (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ(٢١) ، والعبارة الأخيرة واضحة المضمون كرسالة للمشركين بأنكم مهما كدتم محمدا فأنه سيخرج أقوى لأن العناية الإلهية تقف وراءه ، وهذا أمر يشير لقضية ذات أبعاد نفسية واضحة ، فالتجارب هي التي تكسب الإنسان القوة على الصمود وتمنحه القدرة على معالجة العقبات والمعوقات التي تواجهه وهو درس للنبي والمسلمين على حد سواء آنذاك ، فضلا عن كونه رسالة تحطيم لمعنويات المشركين ومحاولة لتحجيم دورهم في محاربة الدعوة .

- المفصل الثاني : المحنة الثانية (٢٢-٥٧) ويمكن أن نقسمها إلى ثلاثة محاور :

١. البلوغ ومحنة الإغواء الجنسي(٢٢-٣٤) ، يبدأ هذا المحور بالحديث عن حصول يوسف على الحكمة والنبوة ، وهنا يمكن أن نؤشر خطا تصاعديا في مزاياه التي ربما كان لها تناسب مع المحنة الجديدة التي تعرض لها حيث كانت محنة مزدوجة الأبعاد فقد تعرض للمراودة الجنسية والحبس ظلما عن ذنب لم يقترفه رغم علم العزيز ببراءته ، ويمكن بهذا الخصوص أن نقارن بين النص التوراتي والنص القرآني من حيث الاختلاف وعلاقته بواقع الصراع مع زعماء المشركين آنذاك ، فالمعروف أن النص القرآني يشير لمعرفة العزيز ببراءة يوسف فقد تأكد أمامه ومن خلال شهادة أحد المقربين أن زوجته هي التي تريد بيوسف شرا لذلك (قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ(٢٨) ، أما التوراة فتقدم رؤيا

مغايرة وهذا نصها " ثم حدث نحو هذا الوقت أنه دخل البيت ليعمل عمله ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت . فأمسكته بثوبه قائلة اضطجع معي . فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج إلى خارج " ، وعندما جاء سيده أخبرته بما حدث " قائلة دخل إلىّ العبد العبراني الذي جئت به إلينا ليداعبني . وكان لما رفعت صوتي وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبي وهرب إلى خارج ... فأخذ يوسف سيده ووضعه في بيت السجن "[٢٢] . كالعادة نحن لا نهتم سوى بدلالة التغاير بين القصتين وطبيعة الرسالة التي تحملها للمتلقين آنذاك أي علاقة القصة بالواقع لأنها على ما يبدو كانت تخاطب عقلا كان يعرف مضمون القصة التوراتية ، وبالتالي فأن أي طرح مغاير له مغزى يدركه المتلقي ولاسيما زعماء المشركين . علينا قبل كل شيء أن نعرف أن العلامة قد تتغير لتدل على رمز واحد في الواقع ، ومن هنا يمكن القول أن الآية القرآنية نعتت سيد يوسف بكلمة العزيز التي تأتي من المنعة أي القوة والشدة والغلبة[٢٣] ، أي عدم الحاجة للآخرين وهذا يعني أنه كان سيدا قويا ثريا وهي الأوصاف نفسها التي كان يتحلى بها زعماء المشركين حيث نصت آية الدخان على ذلك مخاطبة زعماء المشركين (ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ(٤٩) ، ولكن الاختلاف يرينا أن الطرح القرآني يدلل على امتلاك العزيز لصفة أخرى ألا وهي الظلم ، فهو رغم علمه ببراءة يوسف قرر إلقاءه في السجن (ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ(٣٥) بعكس التوراة التي بدا فيها العزيز غير عارفٍ ببراءة يوسف لذا كان متهما بنظره ، وما ذاك ألا من أجل وسم زعماء المشركين على مستوى الواقع بهذه السمة ، وإذا حاولنا تقعيد الإشارة أكثر على مستوى الواقع أمكن القول بأن هناك رسالة مفادها أن زعماء المشركين يعرفون صدق محمد(ص) لكنهم يكذبونه ويضايقونه ويحولون بينه وبين نشر الدعوة بين الناس . فهناك رسالة نقدية ضد زعماء المشركين من خلال أقامة حالة من التماثل بين موقف العزيز من يوسف على مستوى القصة وموقفهم من محمد(ص) على مستوى الواقع . علما أن هناك قاسم مشترك بين المحورين قائم على أساس الكيد ، فقد حذر يعقوب أبنه من كيد أخوته قائلا : (...لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(يوسف٥) ، بينما وصف فعل المرأة بأنه مكيدة . والكيد دلاليا تعني قارب وهي بمنزلة الظن ، الخبث والمكر والاحتيال والاجتهاد والتدبير بباطل أو حق ، وكادت المرأة أي حاضت ، والكيد القيء[٢٤] ، فكأن المعنى أظهار أمر سيء مبطن للعلن ، وقد عرفه الطريحي قائلا :" السعي في فساد الحال على وجه الاحتيال "[٢٥] ، أي مؤامرة ولكن هناك اختلاف في الوسيلة ، ففي المفصل الأول كانت النفي وهي وسيلة ترهيبية ، بينما كانت في هذا المفصل عبارة عن إغواء/إغراء .

لذا من المهم أن نتساءل ما الذي يمثله هذا المحور كعلامة من حيث العموم ؟ ، أن الفعل الأساسي في هذا المحور هو المراودة فقد راودته(آية٢٣) ، ثم نفى يوسف عن نفسه المسؤولية بقوله هي راودتني(آية٢٦) ، ثم شيوع خبر المراودة في المدينة/حادثة النسوة (آيات٣٠-٣١) وهو بُعد غير

موجود في التوراة ، وما هي علاقته بطلب يوسف فيما بعد مساءلة النسوة عن هذا الأمر قبل إخراجه من السجن(آية٥٠) ؟ .

إن المراودة تأتي من الجذر اللغوي أراد التي تعني شاء[٢٦] ، وبهذا الخصوص ذكر الطريحي نصا في غاية الأهمية قائلا " وكأن في المراودة معنى المخادعة لأن الطالب يتلطف في طلبه بلطف المخادع ويحرص حرصه"[٢٧] ، متناغما مع جوهر مضمون هذا البُعد حيث هناك إغواء وإغراء ليوسف لارتكاب خطأ فاحش ، يمكن أن نسميه بوضوح بالفتنة التي هَمَ أي كاد/قارب أن يفعلها لكنه لم يفعل فقد رأى برهان ربه ، وسجن ظلما بسبب امتناعه عنها ، ثم أثبتت الأحداث اللاحقة براءته عن طريق ظهور الحقيقة باعتراف النسوة ، لكنه لم يبرئ نفسه لأنها أمارة بالسوء . فالآيات لا تنفي الإرادة بالفعل أي الرغبة المؤقته لكنها تؤكد أنه لم يفعل ثم أكدت براءته .

وبعد ما علاقته بالواقع ؟ ، هل كان النبي والمؤمنون يتعرضون بالترغيب والخداع لفتنة من قبل زعماء المشركين ؟ وما هو نوعها ؟ .

ينبغي قبل كل شيء أن نضع القارئ في أجواء الصراع آنذاك حيث كانت المرحلة مرحلة صراعية مبنية على الإزاحة والحلول كي تكون قراءته للأزمة قراءة تزامنية وهي أقرب لروح البحث التاريخي ، وليست قراءة بعدية متأثرة بأجواء الحاضر فتصبح قراءة آيديولوجية . إن موضوع الصراع هو حرب الأفكار والقناعات في جو مشحون وملتبس وضبابي بين فئتين أحداهما تقوم على أساس الشرك بالله وتعدد الآلهة وهي ترسانة قديمة راسخة ومقبولة من معظم أبناء المجتمع المكي ، في مقابل دعوة جديدة محدثة تأسست على مبدأ التوحيد ولم يؤمن بها سوى قلة منهم ، فمن الطبيعي أن يكون الصراع على أشده لأن ساحته لا تقتصر على زعماء الطرفين فحسب بل تمتد وهنا جوهر الصراع للتأثير على الناس ، فكان زعماء المشركين يعملون بشكل مزدوج على منع النبي من التأثير على عامة الناس ، فهم (الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً...(هود١٩) ، وفي الوقت نفسه يحاولون فتنة أصحابه من أجل ردهم للدين القديم ، وقد اتخذ الدفاع عدة صور منها الترويج لعقيدتهم وتقديم الدلائل على صحتها والتشكيك في صحة نبوة محمد (ص) واتهامه بالكذب والافتراء كوسائل للوصول لتلك الغاية ، بينما كان النبي يعمل على المحافظة على الجماعة الإسلامية الناشئة بكل السبل والتأثير على غيرهم من بقية الناس بنشر الدعوة بين صفوفهم ، مستخدما الآيات القرآنية التي تُفند عقيدة المشركين وتثبت صحة نبوته . في ظل أجواء الصراع هذه علينا أن نفهم طبيعة المشكلة التي مر بها النبي والمسلمون ، فمن الطبيعي أن يكون هناك تأثر وتأثير من قبل الطرفين المتنازعين ، فقد يزيد إصرار بعض المسلمين وقد تتخلخل قناعات البعض الآخر لاسيما مع شدة الضغط المسلط عليهم وقوته حيث تفنن زعماء المشركين في استخدام كل وسائل التعذيب الجسدي والحرب النفسية والاقتصادية[٢٨].

سورة يوسف

صورة من صور الحرب النفسية في المرحلة المكية

ربما تسعفنا في الإجابة على السؤال المذكور أعلاه الشواهد القرآنية التي وردت في الخاتمة التعقيبية لسورة يوسف ومقارنتها بالسورتيّن اللتين سبقتاها ، وأقصد سورتيّ يونس وهود ، فدواعي نزول سورة يوسف قد لا نعثر عليها من خلال سورة يوسف نفسها فحسب بل في السور التي سبقتها التي تشير لوجود مشكلة حاولت سورة يوسف معالجتها ، خاصة مع ملاحظة حالة التوافق في ترتيب هذه السور الثلاث من حيث ترتيب النزول وترتيب المصحف ، وكأن هناك قصدا من وراء ترتيبها في المصحف بهذه الصورة ألا وهي كي يفهم القارئ الرسالة التي تحملها سورة يوسف وقصته من خلال ربطها مع مضمون السورتين السابقتين عليها ، وعليه يمكن القول بوجود مؤشر واضح بأن زعماء المشركين كانوا يشككون في صحة نبوة محمد (يونس٩٤، هود٦٢، ١١٠) مطالبينه بتقديم دليل صدق(بينة/برهان) ، ويتضح الأمر من خلال قولهم لنبي هود (قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ(هود٥٣) ، وقد طُرِحت النبوة على أنها بينة خاصة بين العبد وربه لا يملكها الآخرون ، مثلما جاء على لسان نوح (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ(هود٢٨) ، الذي يتناغم مع خطاب موجه للنبي محمد (أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إَمَاماً وَرَحْمَةً أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ(هود١٧) ، التي حملت دلالة تأكيد بتكرارها في قصص أنبياء السورة نفسها مثل نبي صالح(هود٦٣) ، ونبي شعيب(هود٨٨) . فكان زعماء المشركين يتهمون النبي محمد(ص) بالكذب والافتراء فجاء في معرض الرد عليهم (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (هود١٣) ، التي كانت ماثلة في نفس السورة (آية ١٨، ٣٥) وفي سورة يونس التي سبقتها (آية١٧،١٨، ٣٨) .

أما البينة التي كانوا يطالبون بها فهي أن يأتي بالمعجزات الحسية التي تثبت صدق نبوته(يونس٢٠، ٩٧ ، ١٠١) ، (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (هود١٢) ، فهي تُظهر بشكل واضح مدى حراجة موقف النبي محمد(ص) وتمنيه أن تتحقق على يديه المعجزات كوسيلة مؤثرة تساهم في حسم النزاع بسرعة .

وقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك في تعجيزه بمطالبتهم إياه بالتعجيل بالعقاب الدنيوي الذي كان القرآن الكريم يستخدم قصص الأمم الأخرى لتهديدهم وردعهم ، فورد في سورة هود : (وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(هود٨) المنسجمة مع قول مماثل يرد في قصة نوح (قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(هود٣٢) . فهم إذن يحاولون إحراج النبي محمد(ص) أمام

الناس عموما وأتباعه خصوصا كي يؤكدوا لهم بطلان دعوته مما يؤدي إلى أضعاف القوة التأثيرية لدعوته ، لذلك جاءت كل قصص سورة هود كدليل صدق على صحة ما يقوله النبي ، ولتؤكد على حتمية العقاب الدنيوي للجاحدين وأنه إن حل فأنه سيشمل الجميع حتى أقرب المقربين إن كانوا مشركين باستثناء النبي والمؤمنين وهذا ما نفهمه من شمول أبن نبي نوح(هود٤٢.٤٣) وزوج نبي لوط (هود٨١) بالعقاب ، ومرة أخرى يستخدم التاريخ كدليل أثبات على صدق دعوة محمد (ص) ، فهناك حالة من التحايث بين القصص ومتطلبات الواقع فقد جاء في سورة هود (تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ(هود٤٩) ، التي لا تختلف من حيث المضمون مع آية وردت في الخاتمة التعقيبية على قصة يوسف (ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ(يوسف١٠٢) ، هذا من جهة ومن جهة أخرى من أجل هدف أكبر يتعلق بالجانب المسلم ألا وهو تثبيت النبي والمؤمنين معه (هود١٢٠) .

وهناك آية مهمة تقول : (وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (يوسف١٠٤) تنفي أن يكون النبي قد أراد أجرا من قومه نظير دعوته لهم ، وقد بدا أن لهذا الطرح جذور في السورتين الأخيرتين حيث كانت من المحاور المتكرر في قصص بعض الأنبياء كقول نبي نوح : (وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ ... (هود٢٩)[٢٩] ، فالأجر هو الجزاء على العمل[٣٠] ، أي المقابل المادي لعمل ما ، ولكن ما المراد به كعلامة ؟ ، لقد جاءت الآيات كي تنفي عن النبي محمد(ص) صفة التفكير بالمنفعة الشخصية الخاصة من وراء الدعوة بل في المنفعة العامة ، وربما للرد على إشاعات تصور دعوته من منظور مادي نفعي وهو أمر ليس بعيد عن تفكير زعماء المشركين الأغنياء المستبدين ، أو أنها جاءت للرد بشكل مباشر على عروض مغرية قُدِمت للنبي محمد من قبل زعماء المشركين وهو الأقرب للواقع وتسانده روايات السيرة النبوية التي تقول أن عتبة بن ربيعة العبشمي قال للنبي " فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا "[٣١] ، ولكن لأية هدف كانت المراودة بالمال ؟ ، من المؤكد أنه من أجل هدف أكبر يمكن تلمس معالمه من خلال العودة مرة أخرى للخاتمة التعقيبية لسورة يوسف حيث نجد فيها نقدا للشرك (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ(يوسف١٠٦) ، ومما يؤكد أكثر أن الشرك هو جوهر العلامة التي حملتها فتنة الإغواء فهو بُعد الدعوة للتوحيد التي قام بها يوسف في السجن الذي يأتي مباشرة بعد محور الفتنة وابتهاله لله قائلا : (... تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (يوسف١٠١) ، فعلى ما يبدو كانت هناك محاولات للتأثير على النبي محمد بهذا الاتجاه ، حيث ورد في سورة يونس (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(يونس١٥) ، فقد ذُكِرَ أنها نزلت في خمسة من قريش كانوا يقولون للنبي " ائت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى"[٣٢] . وتشير بعض آيات السورتين المذكورتين لمحاولات زعماء

صورة من صور الحرب النفسية في المرحلة المكية

المشركين زرع الشك في نفس النبي والمسلمين تجاه عقيدتهم فورد فيها (فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ(٩٤) وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (يونس٩٥) ، (...فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ(هود١٧) . ويبدو أن موضوع هذه الشكوك قيام زعماء المشركين بدعوة النبي والمسلمين لتقبل الشرك طالما أنه لم يأتِ بالبينة/البرهان ، لذلك جاء النهي القرآني صارما في عدد من آيات السورتين : (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(يونس١٠٤) ، و(لاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاء مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (هود١٠٩) ، ويبدو أن حجم المشكلة كان كبيرا بدلالة ما ورد في آية هود (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(١١٢) ، التي ربما أشارت لتأثر بعض المسلمين بتشكيك المشركين نتيجة للضغط النفسي والتعذيب الجسدي الذي تعرضوا له ، كما تعززها الآية التي جاءت بعدها (وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ(هود١١٣) ، ويمكن أن نستنجد بسورة الإسراء التي أشارت لوجود تأثيرات من قبل زعماء المشركين على النبي لثنيه عن التوحيد (وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً(٧٤) التي تتناغم مع مضمون ما ورد في قصة يوسف (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ(يوسف٢٤) ، فضلا عن أن اعتراف يوسف بقوله (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ(يوسف٥٣)[٣٣] له دلالة واضحة بهذا الخصوص . وعلى ما يظهر أن المشكلة لم تنتهِ بل بقيت لها جذور ، وهذا أمر طبيعي في ظل استمرار واقع الصراع بين المشركين والمسلمين ، فهناك تحرك وتحرك مضاد بدلالة الخاتمة التعقيبية التي تلت القصة حيث أكدت على هذا البعد فهي تصف أكثر الناس بالتوحيد المشوب بالشرك (يوسف١٠٦) ، بينما نفت هذه الصفة عن النبي والمسلمين (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(يوسف١٠٨) .

وخلاصة القول أننا أذا حاولنا أن نربط بين العزيز وزوجه كعلامات وربطناها بما يناظرها في الواقع لأمكن تشبيه العزيز بزعماء المشركين والمرأة بالوسيلة التي استخدموها لإغواء/أغراء النبي والمسلمين لقبول ديانتهم ونبذ التوحيد ، فكأن القصة تحذر المسلمين والنبي من مغبة الانخداع من وسائل زعماء المشركين من حيث الرقة والتحايل وتشبيهها بوسائل المرأة في إغواء الرجل لاسيما أذا استحضرنا تعريف الطريحي السابق للمراودة . ومن المفيد أن ندرس هنا مجموعة من آيات سورة يونس التي تتحدث عن قصة نبي موسى ، التي تشير لجذور مشكلة كبيرة كانت تواجه الجماعة

الإسلامية ، وهذا نص الآيات (فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ(٨٣) فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ(٨٦) ، فليس من الصعب أدراك حالة التشابه بين القصة والواقع ، فهي وإن كانت تتحدث عن نبي موسى وأتباعه ألا أن منطلقها الأساس تسقيط الأمر على أوضاع مماثلة يعيشها النبي والجماعة الإسلامية الناشئة من أجل تثبيتهم ورفع روحهم المعنوية وحثهم على الصبر والتحمل من خلال طرح نموذج تاريخي مشابه ، وهي في الوقت ذاته تسلط الضوء على حجم المعاناة/الفتنة التي كانوا يتعرضون لها . وقد وجدنا ما يناظرها في قصة يوسف من خلال قول المرأة (...لَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ (يوسف٣٢) يشير لحجم الضغط الكبير الممارس على النبي محمد(ص) وأتباعه للاستجابة لمطالب المشركين ، أما قول يوسف : (...رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ(يوسف٣٣) فهو يبعث برسالة ذات دلالة مهمة للنبي والمسلمين بأن عليهم التضحية وتحمل المشاق في سبيل المبدأ الذي يؤمنون به .

٢. مرحلة السجن : (ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ(يوسف٣٥) ، إن السجن على مستوى القصة واضح وصريح بالنسبة ليوسف ، لكن نظيره على مستوى الواقع مبهم ؟ ، ومن الجائز أن العلامات تكون مجازية أحيانا ، لذا علينا أن نستلهم مضمونها المجازي ، فالسجن لغةً يعني الحبس ، " وسجن الهم يسجنه إذا لم يبثه"[٣٤] ، ويمكن القول على مستوى الواقع أن زعماء المشركين كانوا يحولون بين النبي وبين نشر الدعوة بين الناس آنذاك أي تحجيم حركته وفرض قيد/طوق عليه (هود١٩) ، وهذا يمكن أن يكون سجنا ، فالقصة تُبيِّن وجود إصرار على سجن يوسف رغم براءته يناظرها في الواقع إصرار على صد محمد(ص) عن الدعوة رغم صدق النبوة ، ونستدل على صحة ذلك بقيام يوسف بالدعوة إلى التوحيد ونبذ عبادة الأصنام من داخل السجن (آيات٣٧-٤٠) ، وخاصة قوله (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ...(يوسف٣٨) . أي ما يمكن أن نسميه طرح نموذج النبي الفاعل الذي يعمل تحت ضغط أصعب الظروف وفي كل الأماكن لكسب الناس فهو نموذج يُقَدم لتثبيت النبي محمد(ص) ودفعه أكثر لاستغلال كل الفرص المتاحة مهما كانت صعوبتها لنشر الدعوة رغم ضغوطات المشركين التي كانت بمثابة الطوق/السجن الذي فرض عليه ، كما أنها تأتي في سياق الرد على عقيد الشرك الذي شخصته الآيات الأخيرة من سورة يوسف ، وهي في الوقت ذاته على المستوى الحبكة تعمل على استغلال لهفة المتلقين لمعرفة القصة لبث أفكار الدين الجديد ، كما أن له علاقة بما تقدم ذكره بخصوص نوع الفتنة التي تعرض لها النبي والمسلمون ، لاسيما أن هذا البعد غير مذكور في التوراة .

٣. الإفراج والتمكين الثاني : لقد كانت الرؤى النعمة التي أمتلكها يوسف مثار حسد أخوته وتكالبهم ضده ، ولكنها في هذا المفصل ستكون النعمة التي تعطي ثمارها وتساهم في إنقاذه من السجن ، فلم يكن يوسف مجرد رائي بل كان معبرا أي عارف بمضمون رؤاه ورؤى غيره ، وعبر هي الجذر اللغوي لكلمة تعبير ، التي تعني من بين ما تعنيه الانتقال من حالة إلى أخرى ، وتعبير الرؤى هو انتقال من النوم للواقع ، ومن المجهول الرمزي إلى المعلوم البين ، ومن غموض الحاضر إلى استشراف المستقبل ، وهو بالتالي قد يقوم بقراءة دقيقة لواقع ما ، أو يقدم حلا لمشكلة مستعصية وهو بهذا يقدم منظورا لما سيأتي وهذا ما حدث ، وعلى أية حال كان تعبيره لرؤى الملك مصدر نعمة كبيرة أشارت له آية يوسف (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ...(٥٦) ، وهكذا يمكن أن نلمس وجود خط تصاعدي في سيرة يوسف ، فهو مع نهاية كل محنة يصبح أقوى وفي موقع أفضل في التأثير على مجريات الأحداث ، وهي رسالة تصبير للمسلمين فكل شدة يتلوها فرج مثلما ورد بشكل صريح في آيات لسور سابقة على سورة يوسف مثل آيتيّ الشرح (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً(٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً(٦) شريطة الصبر على المحن التي يمرون بها ويتعرضون لها ، ويمكن أن نلحظ أن هناك تلازما بين رؤيا الملك وبين سيرة يوسف وأحداث قصته ، فكلاهما كانت قائمة على ثنائية الفرج بعد الشدة الأمر الذي يحمل رسالة تأكيد مزدوج للمتلقين بمضمون آيات سورة الشرح .

ولكن ما هي الرسالة التي تبعث بها مطالبة يوسف بمساءلة النسوة قبل الإفراج عنه ؟ ، (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ(يوسف٥٠) ، أن جوهر الفكرة هو أثبات براءة يوسف التي ترسل رسالة للمتلقين على مستوى الواقع مفادها براءة محمد(ص) مما نُسِبَ أليه من أنه صاحب منفعة خاصة أو أنه استجاب لعروض زعماء المشركين أو أبدى مرونة بخصوص تقبل ديانتهم .

المفصل الثالث : التمكين الفاعل (٥٨-١٠١) :

وهي المرحلة التي أصبح فيها يوسف فاعلا يتحكم في الأحداث على عكس المرحلتين السابقتين حيث كان مستلبا ومصيره بيد غيره (مفعولا به) . ويَنْصَبُ هذا المفصل على الحديث عن مجيء أخوته الضعفاء المحتاجين إلى يوسف القوي المكين . لقد أستغرق كثير من الآيات ، وسنتحدث عن الرسائل التي حملها ، فيلاحظ أن يوسف لم يكشف عن هويته لهم منذ البداية كي يُنْهي المسألة ، فقد كان هناك استطراد من المؤكد أن له مغزاه ، فقد تعامل معهم بروحية متسامحة وليست ثأرية نلمس منها رسالة ذات مضمون أخلاقي تروج لقيم التسامح وسمو التعامل مع من أساء إليك على غرار مضمون آية الأعراف (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ(١٩٩) ، وآية المؤمنين التي نزلت فيما بعد (ادْفَعْ بِالَّتِي

هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ(٩٦) . أما احتياله للاحتفاظ بأخيه التي وصفت قرآنيا (كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ...(يوسف٧٦) فهو أشارة للنبي محمد والمسلمين تعطيهم الضوء الأخضر لكيد المشركين مثلما يكيدون له من أجل نشر الدعوة . أما صبر يعقوب على فقدان البنين المضاف لصبر يوسف على المحن بقوله بعد تَعَرُفِ أخوته عليه (...إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(يوسف٩٠) ، ففيهما حث واضح للنبي والمسلمين على امتلاك صبر مماثل فهو مفتاح الفرج على غرار ما تكرر في سورة هود (...فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ(٤٩) (وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(١١٥) ، وقد سبق أن جاء في نهاية سورة يونس(١٠٩) أمر واضح مماثل للنبي بالصبر . أما توبة أخوة يوسف فهي الباب الذي بقي مفتوحا أمام زعماء المشركين لمراجعة أنفسهم والاعتراف بأخطائهم والتوبة على يد النبي محمد(ص) مثل تاب أخوة يوسف على يديه ، وتأكيدا لخطاب متكرر في سورة هود[٣٥] ، وإن كانت لها بعد آخر أبعد من ذلك هو زرع الأمل في نفوس النبي والمؤمنين بانتصار الدعوة .

وأخيرا إن قراءة أحدى آيات الخاتمة التعقبية على القصة التي كانت موجهة بشكل مباشر للنبي محمد (ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (يوسف١٠٢) يظهر لنا أن القصة تُقدم كبرهان أو دليل على صحة ما تبشر به وعلى الرسائل المتنوعة التي كانت ترسلها ، وهنا تكمن أهمية سرد قصة يوسف كاملة دون بقية القصص ، لاسيما أنها جاءت لمعالجة واقع أليم ومحنة كبيرة تعرض لها النبي تمثل بالضغط القوي المسلط عليهم من قبل زعماء المشركين بوسائلهم الترهيبية المتمثلة بالتهديد بالقتل والنفي (المفصل الأول) ، والسجن (المفصل الثاني) ، فهناك تلازم بين القصة وبين آية الأنفال التي أجملت ما تعرض له النبي آنذاك ، ثم الترغيب من خلال العروض المقدمة للنبي كي ينحرف بالدعوة في بُعْدِ الفتنة ، فهي محنة مزدوجة الأبعاد تنطوي على ترهيب وترغيب في الوقت ذاته ، فقد أصيب على ما يبدو النبي والمسلمون بحالة من القنوط واليأس شخصته بعض آيات سورة يونس(٦٥) وهود (١٢، ٣٦) وأحدى الآيات التعقيبية لسورة يوسف (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (يوسف١١٠) التي تتناغم مع وظيفة القصة في أنها جاءت لإعطاء النبي والمسلمين أمل بالمستقبل .

أن الرؤيا/معرفة المستقبل على مستوى القصة هي ميزة امتلكها يوسف ، ولعبت دورا حيويا في حياته فكانت رسالة واضحة للمشركين تثبت نبوة النبي محمد(ص) وتدحض مزاعمهم بتكذيبه نافيةً في الوقت ذاته ادعاءاتهم بان الجن هم مصدر خبر السماء . ولكن الأهم وهذه هي النتيجة الحيوية لهذه الدراسة أن القصة ككل كانت بمثابة رؤية استشرفت مستقبل الدعوة وحتمية انتصارها فقدمت أملا للنبي وللمسلمين المستضعفين المضطهدين محاولةً رفع روحهم المعنوية ، بينما عملت من جهة أخرى على تحطيم معنويات زعماء المشركين للتقليل من ضغوطاتهم ضد النبي والمسلمين ، ويمكن الإشارة لصحة ذلك من

خلال التقارب في المعالم العامة للقصة وواقع الدعوة ، فيوسف ومحمد كانا مضطهدين من قبل أخوتهما ولكنهما انتصرا في النهاية ، حيث عفا يوسف عن أخوته قائلا : (قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(يوسف٩٢) ، وليس من الغريب أن يقول النبي قولا مماثلا للمشركين عندما دخل مكة عام الفتح (٨هـ/٦٢٩م) " يا معشر قريش ما ترونى أني فاعل فيكم ، قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم ، قال اذهبوا فأنتم الطلقاء"[٣٦] . وليس من الغريب أن يطلب الإمام علي من أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية – اللذان لقيا النبي في منطقة الأبواء في طريقه لفتح مكة وهما ابن عمه وابن عمته ولم يستقبلهما لأنهما كانا يؤذيانه في مكة – أن يقولا للنبي ما قاله أخوة يوسف ليوسف (قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ(يوسف٩١) ، وعندما فعلا ذلك ، ما كان أمام النبي ألا أن قال لهم نفس قول يوسف أعلاه[٣٧] .

كما أن المقارنة بين حجم المفاصل الثلاثة من حيث عدد الآيات ستظهر انه يحمل رسالة واضحة ، فالمحنة الأولى(١٧) والثانية(٣٥) كانتا قصيرتين قياسا بالمساحة المخصصة لتمكين يوسف ونصره (٤٦) ، وهذه رسالة واضحة الدلالة لها علاقة بمضمون القصة ككل في أنها تخفف من وطأت المحنة التي كان يمر بها النبي والمسلمون لرفع معنوياتهم ، وكأنها تقول لهم أن أيام المحن ستذهب سريعا وتأتي أيام الرخاء من أجل تثبيتهم ومنحهم أمل أكبر بالمستقبل .

ويلاحظ أن القميص كعلامة كان حاضرا في المفاصل الثلاثة : (وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ...(يوسف١٨) . (وَاسُتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ...(يوسف٢٥) . (اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ(يوسف٩٣) ، مما له دلالة مهمة تتضح أكثر عندما نربطها بأحد معاني جذره اللغوي ، فيقال للقلق أخذه القماص أي " ألا يستقر في موضع ، تراه يقمص فيثب من مكانه من غير صبر"[٣٨] ، مما له علاقة بالحالة التي كان يعيشها النبي والمسلمون آنذاك . وقد كان وسيلة استخدمت ضد يوسف فلا يمكن تجاهل علاقته بالواقع بقيام زعماء المشركين باللعب على وتر استغلال قلق النبي وأتباعه . بينما جاء القميص ليحمل البشارة ورجوع ما فقده يعقوب أليه (بصره ، أبنيه) ، ففيها كعلامة دلالة تبشير للنبي والمؤمنين بأنهم سيستعيدون ما فقدوه من مكانة من أيدي زعماء المشركين .

كانت محاولة طمأنة وزرع الأمل في نفس النبي والمسلمين قد وردت في سورة هود ، لكنها على ما يبدو لم تكن كافية مما أستدعى سرد قصة يوسف ، وهذا ما نقرأه من بُعد تبشير نبي إبراهيم بالولد في سورة هود (وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ(هود٧١) ، لأنها لم تصدق أن حلم حياتها سيتحقق وتنجب ذكرا في عمر متأخر ، فهل ننظر لها كرسالة نظرة اعتباطية ، خاصة مع معرفتنا بتميزها من حيث المضمون عن سياق قصص الأنبياء التي وردت في السورة نفسها حيث كانت

تدور حول ثلاثة مفاصل : الدعوة . الجحود . تطمين المؤمنين وإنزال العقاب الدنيوي بالمشركين ؟ ، قطعا لا ، لصميمية علاقتها بالواقع كبشارة للنبي محمد(ص) وإتباعه بحتمية الفرج رغم تأخره ، رغم أنه بدا في أعين معظم المسلمين آنذاك أنه أمر من الصعب تحققه كحمل سارة زوج نبي إبراهيم في عمر متأخر . وعلى هذا الأساس جاءت قصة يوسف مكملة لقصة إبراهيم وذات أبعاد أكبر تنسجم مع سردها كاملة في سورة واحدة .

الهوامش

[١] . أونج ، الشفاهية والكتابية [الكويت ١٩٩٤ ، سلسلة عالم المعرفة ١٨٢] ٤٥ .

[٢] . أونج، الشفاهية ، ٩٣ .

[٣] . الطبرسي، مجمع البيان [بيروت ، ١٩٩٤] ،٥٠/٢ ؛ القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، [بيروت١٩٨٤] ٤٣١/٢ .

[٤] . الطبري، جامع البيان [بيروت ، ١٩٩٤] ، ١٥٠.١٤٩/٢٣؛ قاموس الكتاب المقدس [مكتبة المشعل، ١٩٨١،ط٦] ٩٤٣ .

[٥] . ابن إسحاق ، سيرة ابن إسحاق [تح محمد حميد الله ، الرباط] ، ١٨٢ .

[٦] . دروزة ، محمد عزة ، عصر النبي [بيروت ، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م ، ط٢] ٤٦٨ ، ٦١٣ .

[٧] . الطبري ، جامع البيان ، ١٢٦/٢٣ ؛ الطبرسي ، مجمع البيان ، ٣٤٥/٨ .

[٨] . الطبري ، جامع البيان ، ١٤٤/١٤ .

[٩] . لسان العرب[بيروت ، دار صادر ، ط١] ٣٠٣.٢٩١/١٤ ؛ ينظر : الفراهيدي ، العين[تح مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي ، بغداد١٩٨٢] ٣٠٩.٣٠٨/٨ .

[١٠] . علي غانم ، بيئة الرسول في القرآن الكريم ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة البصرة ، كلية الآداب ، ٢٠٠٦م ، ٣٤٦-٣٤٩ .

[11] . البخاري ، صحيح البخاري [دار الفكر ، بيروت] ، ٨/٦٨-٦٩ ؛ مسلم ، صحيح مسلم [دار الفكر ، بيروت] ، ٥٣/٧ ؛ الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد [بيروت ، دار الكتب العلمية] ٣/٣٣ ، ١٤٢ ، ١٨٩/٥ .

[12] . البخاري ، صحيح البخاري ، ٦٧/٨ ؛ ابن هشام، السيرة النبوية [تح طه عبد الرءوف ، بيروت ، ١٤١١هـ ، ط١] ٦٦/٢ ؛ ابن سعد ، الطبقات الكبرى [بيروت ، دار صادر] ١٩٤/١ ؛ الخطيب ، تاريخ بغداد ، ٤٠١/١٤ .

[13] . تاريخ بغداد ، ٢٥٤/٦؛ ٤٤٣.٤٤٢/١٢ .

[14] . ابن هشام ، السيرة النبوية ١٥٤/٣ .

[15] – سفر التكوين ، أصحاح ٣٧ .

[16] – النجم ٤٩، الأنعام ٧٥-٧٨ ، النمل ٢٤ ، فصلت ٣٧ .

[17] – الفراهيدي ، العين ، ١٩٢/٦ ؛ ابن منظور ، لسان العرب ١٣٠/١٤.

[18] – ينظر أيضا : الأعراف ٧٣، ٨٥ ؛ النمل ٤٥ ؛ هود ٥٠ ، ٦١ ، ٨٤ .

[19] . يناظرها ما ورد في سور سابقة مثل الأعراف ٨٢، ٨٨ التي تدور حول تهديد نبيّ لوط وشعيب من قبل قوميهما

[20] – سفر التكوين ، أصحاح ٣٧ .

[21] – المرسلات ٣٩ ، الطارق ١٧ ، الأنعام ١٢٣ ، ١٢٤ ، الأعراف ٩٩ ، يونس ٢١ ، النمل ٥٠-٥١ ، ٧٠ ، فاطر ١٠ ، ٤٣ .

[22] – سفر التكوين ، أصحاح ٣٩/ ١١-٢٠ .

[23] – ابن منظور ، لسان العرب ، ٣٧٤/٥- ٣٧٥ .

[24] – ابن منظور ، لسان العرب ، ٣٨٣/٣-٣٨٤ .

[25] – مجمع البحرين [تح أحمد الحسيني ، النجف ١٣٨٦هـ ، ط١] ، ١٣٩/٣ .

[26] – ابن منظور ، لسان العرب ، ١٩١/٣ ؛ الطريحي ، مجمع البحرين ٥٦/٣ .

[27] – مجمع البحرين ٥٦/٣ .

[28] – البلاذري ، أنساب الأشراف [تح محمد حميد الله ، دار المعارف] ، ١/ ١٢٥-١٩٨.

[29] – ينظر أيضا : يونس٧٢؛ هود٥١ ؛ علما أنه ورد في سور سابقة كثيرة منها على سبيل المثال : ص٨٦؛ الشعراء ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠ ، النمل ٩١ .

[30] – ابن منظور ، لسان العرب ، ١٠/٤ .

[31] – ابن إسحاق ، سيرة ابن إسحاق ، ١٧٨/٤ ؛ ابن هشام ، السيرة النبوية ، ١٣٠/٢-١٣١؛ الطبري ، جامع البيان ٢٠٥/١٥، .

[32] – الواحدي ، أسباب النزول [القاهرة ، ١٩٦٨] ، ١٧٩.

[33] – الطبري ، جامع البيان ، ٣/١٣ ؛ الطبرسي ، مجمع البيان ، ٤١٤/٥ .

[34] – لسان العرب ، ٢٠٣/١٣ .

[35] – الآيات : ٣، ١١، ٥٢، ٦١، ٩٠ .

[36] – ابن هشام السيرة النبوية ، ٧٤/٥ .

[37] – ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد [تح شعيب الأرناؤوط ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ط١٤] ٤٠٠/٣.

[38] – الفراهيدي ، العين ، ٧٠/٥ .

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

التوراة

أبن إسحاق ، محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي ، ت١٥١هـ/٧٦٩م . سيرة إبن إسحق ، تحقيق محمد حميد الله ، الرباط ، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م .

أونج ، والترج . الشفاهية والكتابية ، ترجمة حسن البنا عز الدين ، الكويت ١٩٩٤ ، سلسلة عالم المعرفة ١٨٢.

البخاري ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي ، ت٢٥٦هـ/٨٦٩م . صحيح البخاري ، دار الفكر ، بيروت .

البلاذري ، أحمد بن يحيى بن جابر ، ت٢٧٩هـ/٨٩٢ م . أنساب الأشراف ، تحقيق محمد حميد الله ، دار المعارف .

جثير ، علي غانم ، بيئة الرسول في القرآن الكريم ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة البصرة ، كلية الآداب ، ٢٠٠٦م .

الخطيب البغدادي ، احمد بن علي (٤٦٣هـ/١٠٧١م) تاريخ بغداد ، بيروت ، دار الكتب العلمية .

دروزة ، محمد عزة ، عصر النبي ، بيروت ، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م ، ط٢ .

إبن سعد ، محمد بن سعد البصري ، ت٢٣٠هـ/٨٤٤م . الطبقات الكبرى ، بيروت ، دار صادر ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .

الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، ت٣١٠هـ/٩٢٢م . جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، بيروت ١٩٩٤م .

الطبرسي ، أبو علي الفضل بن الحسن ، ت ٥٦٠هـ/١١٦٤م . مجمع البيان في تفسير القرآن ، بيروت ، ١٤١٥هـ ، الطبعة الأولى .

الطريحي ، فخر الدين بن محمد بن علي ت١٠٨٥هـ/١٦٧٤م . مجمع البحرين ومطلع النيرين ، تحقيق أحمد الحسيني ، النجف ١٣٨٦هـ ، ط١ .

الفراهيدي ، أبو عبد الرحمن الخليل بن احمد ، ت ١٧٥هـ/٧٩١م . العين ، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي ، بغداد١٩٨٢.

قاموس الكتاب المقدس ، مكتبة المشعل ، ١٩٨١، ط٦ .

القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ، ت٦٧١هـ/١٢٧٢م . الجامع لأحكام القرآن ، بيروت١٩٨٤ .

ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ط١٤ .

مسلم ، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري ، ت٢٦١هـ/٨٧٤م . صحيح مسلم ، بيروت ، دار الفكر .

أبن منظور ، أبو الفضل محمد بن مكرم الأفريقي المصري ، ت٧١١هـ/١٣١١م . لسان العرب ، بيروت ، د. ت ، دار صادر ، ط١ .

أبن هشام ، أبو محمد عبد الملك الحميري ، ت٢١٨هـ/٨٣٣م . السيرة النبوية ، تحقيق طه عبد الرءوف سعد ، بيروت ، ١٤١١هـ ، ط١ .

الواحدي ، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري ، ت٤٦٨هـ/١٠٧٥م . أسباب النزول ، القاهرة ، ١٩٦٨م .

Abstract :

The research tried to read the story of Joseph according to the regulations of signs by revealing the content of the letter that was sent to the recipients at that time in light of the conflict between the Prophet Muhammad and the leaders of the polytheists through the Approach between story and reality according to the systems of signs. It became clear that the story came to treat the psychological situation that has passed by the Prophet and the Muslims due to pressure leaders of the infidels to them, on the other hand tried to reproach the idolaters psychologically and minimize threats to the exercise over the Prophet and the Muslims and the invitation for unification and criticism of polytheism, was a vision of anticipating the future of conflict and promise with victory of new invitation.